الفصل الثاني

الانتظام: هل السَّببيَّة محررة من أيّ قيد أو ارتباط؟

ينطوي العالم على العديد من مظاهر الانتظام؛ فعندما يحدث شيء معيَّن يرتبط به شيء آخر، أو يكون متبوعًا به؛ فعلى سبيل المثال: تسخين الماء يتبعه بصورة منتظمة تحوُّله إلى بخار، وعند تسخين الجليد يتبع ذلك ذوبانه، وعندما يأكل الناس الخضار فيعقبُ ذلك تحسُّن في صحتهم، فيما يكون امتناعهم عن تناول الطعام متبوعًا بالنحول والمرض، وعند رمي النوافذ بالحجارة يعقبُ ذلك تحطُّم الزجاج، ويتزامن مع التَّصفيق بالأيدي صدور صوتٍ محدَّدٍ... إلخ. نلحظ هنا أنَّ هذه الحالاتِ المُنوَّعةَ يجمع بينها شيء مشترك؛ فأنماط الأحداث، أو الأفعال، أو الحالات تحصل في صورة ثنائيات متلازمة، وهذا يعني أنَّ وقوع حدث ما -كالتَّصفيق بالأيدي مثلًا- يتبعه حدث ثانٍ مميَّز وهو صوت التصفيق.

لماذا تظهر هذه الرَّوابط المنتظمة بين أنماط الأحداث؟ ولماذا تقترن هذه الأحداث معًا بصورة ثنائيِّة؟

obeikandl.com

الجواب الطبيعيُّ عن هذا السؤال يتمثَّل في أنَّ الحدث الأوَّل يتسبَّب في وقوع الحدث الثاني؛ فعلى سبيل المثال: تسخين الجليد يؤدي إلى ذوبانه؛ لذا ليس من قبيل المُصادفة أنْ يذوب الجليد بعد تسخينه؛ فالتسخين يؤدِّي إلى حدوث الذوبان، ولكن: هل نمتلك المعلومات الكافية لنقول ذلك؟ هل تفسِّر السَّببيَّة ظاهرة الانتظام؟

لقد قدّم لنا هيوم نظرة جديدة إلى السَّببيَّة، وقد وجد كثيرون أنَّ أفكاره منطقيَّة، ومُقنعة.

تمثلت فكرته الجديدة في قلب مسألة السَّببيَّة، والترابط رأسًا على عقب؛ فقد اعتقد هيوم أنَّ السَّببيَّة لا تفسِّر الترابط، بل العكس صحيح؛ أيْ إنَّ الترابط هو الذي يفسِّر السَّببيَّة، ولا يتعيَّن علينا الإشارة إلى أنَّ نوعًا معيَّنًا من الأشياء يتبع شيئًا آخر بانتظام لأنّهما مرتبطان سببيًّا، بل علينا الاعتقاد أنَّ شيئًا واحدًا يتسبَّب بحدوث الآخر فقط؛ لأنَّ أحدهما يتبع الآخر بانتظام.

هيوم، ولعبة البلياردو

كيف تمكَّن هيوم من معارضة الحسِّ السَّليم بهذه الطريقة؟ وبمَ كان يفكر؟ لقد اعتقد التجريبيُّون أنّه من المُهمِّ العودة إلى الأدلة الحسِّيَّة، بينما اعتقد هيوم أنّه يجب علينا العودة إلى الخبرات، والتجارب الأصليَّة التي قادتنا إلى الأفكار، والمفاهيم لفهمها بصورة فضلى، فإذا وضعنا فرضيَّات الحسِّ السليم، أو الفطرة السَّليمة جانبًا، ستكشف لنا خبرتنا أنَّ شيئًا ما يتبع شيئًا آخر دون أنْ يكون الحدث الأوَّل مرتبطًا بالذي يتبعه، أو يصنعه، أو يتسبَّب بحدوثه.

يرى هيوم أنَّ خير مثال على السَّببيَّة يمكننا أنْ نشاهده على طاولة البلياردو؛ فعندما تتحرَّك إحدى الكرات باتجاه كرة أُخرى، ثم تتلامس الكرتان، تتحرَّك

الكـرة الثانية التي كانت سـاكنة بعيدًا عن الكرة التـي اصطدمت بها، ونحن على يقين بأنَّ الكرة الأولى المتحرِّكة تسـبَّبت بحركة الثانية، ولكن لماذا علينا الاعتقاد بذلك؟ وما الدليل الحسيُّ الذي نملكه، و يثبت صحة اعتقادنا؟ وما الذي يدفعنا إلى هذه القناعة؟

يعتقـد هيـوم أنَّ كلَّ مـا نـراه هو سلسـلة من الأحـداث المُتواليـة؛ فعندما ترى لاعبًا يضرب كرة بلياردو، فأنت تشـاهد على الطاولة أحداثًا تحصل وفق ترتيب معين؛ لنتخيَّل المشـهد من جديد: عندما تكون عصا البلياردو في وضع التسـديد، ثم تتحرَّك إلى الأمام لتلامس الكرة البيضاء التي تتدحرج على فضاء الطاولة، ثـم تلامس كرةً حمراء، لنسـمع صوتًا عند اصطدام الكرتين، ثم تتحرك الكرة الحمـراء بعيـدًا، بينمـا تغيِّر الكـرة البيضاء اتجـاه حركتها، ثم تتباطأ، ويسـتمر وقوع الأحداث وفق هذه الطريقة.

غالبًـا مـا تُسـتعمل لغة السَّـببيَّة عنـد وصف مثل هذه السِّلسـلة مـن الأحداث المتواليـة؛ فقد يقول شـخصٌ ما: إنَّ الكرات أصـدرت صوتًا عند تصادمها، وكأنه يقـول: إنَّ الصَّـوت نـاتجٌ من الاصطدام، ولكن كل مـا نعرفه من خلال خبرتنا هو تتابـع الأحـداث، فنحن لا نملك دليـلًا تجريبيًّا فوريًّا يربط بين تلامس الكرات، وصدور الصوت.

لماذا علينا الاعتقاد بأنَّ أحد الأحداث تسبَّب بوقوع حدث آخر، مع أنّنا نعرف أنَّ هـذه الأحـداث مُسَلسَـلة؟ لدى هيـوم جواب عن هذا السُّـؤال، فهو يـرى أنّهُ لا يمكننا الإقرار بأنَّ حدثًا ما يتسبَّب بوقوع حدث آخر من خلال دراسة مثال واحد فقـط – كأنْ تصطـدم كـرة بأُخرى، فتتحرَّك الثانية – ولكـن من خلال خبراتنا، فنحن بالتأكيد قد رأينا أمثلة مشـابهة؛ فقد شاهدنا العديد من ألعاب البلياردو، والسـنوكر، وفي كل لعبـة تحصل ضربات وتصادمات كثـيرة بين كرات البلياردو،

ومـا نعرفه في حالة كهـذه أنَّ الكرة الثانية تبدأ بالحركة عندما تصطدم بها كرة أخرى بعد أنْ كانت الثانية في موضع السكون.

تقول نظريَّة هيوم: إنَّنا لا نعي فكرة السَّـببيَّة إلا من خلال ملاحظة الأحداث المنتظمـة. إنَّ تكـرار الأمر هو مفتاح الحلِّ؛ فعندمـا يكون حدث ما متبوعًا بحدث آخـر علـى الـدَّوام، فهذا يقودنـا إلى الاعتقـاد بأنَّ الحـدث الأول تسـبَّب بحدوث الثاني.

أفكار هيوم المختلفة

لا يوجـد في تفسـير هيـوم ما يسـمح بطـرح فكرة النـاتج السَّـببيِّ إلا بقدر ما يُعتقد أنَّ ما نعنيه بالناتج هو وجود تسلسـل مُنْتَظم لحدث من نوع محدد متبوعًا بحدث آخر، وقد رأينا كيف تتجلَّى مسـألة السَّـببيَّة بوجود تسلسـل منتظم لنمط معيَّن من الأشـياء يعقبه نمط آخر، ولقد مرَّ بنا أنَّ مسـألة السَّـببيَّة تتمثل في أنَّه لا يوجد ارتباط ظاهر يربط السـبب بالنتيجة. وبناءً على ما تقدّم، ووفقًا لوجهة نظـر هيـوم التجريبيَّـة، فلا مبرِّر للاعتقـاد بالترابط السَّـببيِّ؛ لأنّـه لا يوجد أثر حسِّـيٌّ لذلـك. إنّ مفهوم هيوم للسَّـببيَّة يتلخص في القـول الآتي: «**تبدو الأحداث كلها حرّةً تمامًا ومنفصلةً: حدثٌ يتبع حدثًا آخر، لكن لا يمكننا رصد أيِّ رابط بينهما. إنَّهما يبدوان مقترنيْن، لكنهما غير متصلين ببعضهما على الإطلاق.** (An Enquiry Concerning Human Understanding section VII, part 2)

في مرحلـة لاحقـة، اقترح الفيلسـوف ديفيـد لويـس (1941 – 2001م) –وهو مـن أتباع هيـوم– أنْ نفهم فكرة هيوم وفق التّصور الآتي: العالمُ مجموعةٌ واسـعةٌ من الحقائق غير المترابطة، شيء صغير يتبعه شيء آخر، ولكنْ عندما ننظر إلى هذه الحقائق المختلفة، فقد نميِّز نموذجًا ما. إنَّ المسـألة تبدو كما لو أنَّنا وضعنا

قطع الفسيفساء في دلو، ثم هززْناهُ بقوَّةٍ، ومن ثَمَّ رمينا هذه القطع على الأرض، وعندما تسقط كل قطعة في مكان معين بمحض الصدفة، فسنرى نموذجًا واضحًا قد تشكل: توجد قطعة حمراء حِذاءَ كل قطعة زرقاء، ولكن لا شيء يفرض هذا النموذج، أو يستدعيه، إنّها مجرَّد حقيقة عن الفسيفساء.

إنَّ مثال الفسيفساء مجرد تشبيه، لكنه مفيد؛ فعلى غرار أنماط قطع الفسيفساء، فإنَّ العالم -وفقًا لأتباع نظرية هيوم- يتألف من أنماط من الأحداث، ونحن نشكل قناعاتنا حول الرَّابطة السَّببيَّة من خلال معاينة أنماط مشابهة في الطبيعة، قد يُلقي هذا المثال الضَّوْء على بعض ملامح السَّببيَّة، مثل: انتفاء التناسق الواضح، ونعني بانتفاء التناسق في السَّببيَّة أنَّ الحدث (أ) يتسبَّب بحدوث (ب)، لكن (ب) لا يتسبَّب بحدوث (أ). وعليه، فإنَّ احتكاك عود الثقاب بسطح ما يتسبَّب باشتعاله، وليس العكس صحيحًا. بالنسبة إلى أتباع هيوم، فهذا يعني أنَّ الحدث (أ) يكون متبوعًا دائمًا بالحدث (ب)، لكن (ب) لا يكون دائمًا متبوعًا بالحدث (أ)، وهذا ممكن كما يظهر من تجربة الفسيفساء. لقد قلنا: حيث تكون قطعة زرقاء ستكون إزاءَها قطعة حمراء، ولكن هذا لا يعني بالضَّرورة أنَّ أيَّ قطعة حمراء سنجد بجانبها قطعة زرقاء؛ فقد تكون بعضُ القطع الحمراء محاطة بقطع من ألوان أُخرى. لقد قلنا: إنَّ القطع الزرقاء ستكون دائمًا مرافقة للقطع الحمراء أينما وجدت.

وعودًا على بدء، ففي الاقتباس المنسوب إلى هيوم نجد أنّه يعتقد بالاقتران، والاتصال بين الأحداث، وليس بالارتباط بينها، وغالبًا ما تُسمى وجهة نظر هيوم بتفسير الاقتران الثابت، أو التزامن المتواصل؛ فإذا تسبَّب (أ) بحدوث (ب)، فهذا يعني أنَّه يوجد اقترانٌ ثابتٌ بين (أ)، و(ب)، بالإضافة إلى بعض الشروط التي سنناقشها في الفصل القادم.

انتظام من دون نتيجة

تبـدو فكـرة الاقتران الثابت بسـيطة جـدًّا، لكنَّ أتبـاع هيوم يشـيرون إلى أنّه بصـرف النظـر عن مقـدار دقة الحالة التـي أمامنـا، أو تعقيدها، فـإنَّ افتراض السَّببيَّة لا يعدو عن أنه اقتران مستمر بين السَّبب والنتيجة.

مـن الواضـح أنَّ قطع الرأس يتسـبَّب بالموت، وبالنسـبة إلى أتبـاع هيوم فإنَّ عمليَّات قطع الرؤوس كلها تكون متبوعة بالموت، وقد يميل أحدنا إلى الاعتقاد أنَّ هـذا أكـثر من مجـرَّد اقتران ثابت، ويمكـن لأحدنا أنْ يدَّعي المقدرة على تفسـير سبب الموت بعد قطع الرأس على النحو الآتي: يتحكَّم الدماغ بالعديد من وظائف الجسـد وفق آليَّات عمل مرتبطة بأعصاب الحبل الشـوكي، وإذا قطعت الرأس،

فستتوقف أعضاء الكائن الحي عن العمل. لكن أتباع هيوم لديهم تفسير آخر لهذه الحالة؛ فمع أنَّنا نعتقد غالبًا بوجود آليَّات تعمل وفقًا للاقتران الثابت أو الانتظام، فإن آثار هذه الآليَّات نفسها لا تعدو عن أنها انتظامات إضافيَّة. وبناءً عليه، فإنَّ الموضوع ليس سوى مسألة انتظام، وهذا يعني أنَّ العديد من وظائف الجسد تتوقف عن العمل عند قطع الحبل الشوكيِّ ؛ لذا فإنَّ وجود هذه الآليَّات يُظهر لنا أنّ هيوم لم يكن بعيدًا عن دائرة الصَّواب عندما اعتقد أنَّ السَّببيَّة ليست سوى مسألة انتظام؛ فهذه الآليَّات تعمل بالطريقة نفسها، وستقدِّم لنا مزيدًا من الانتظامات فقط.

لنأخذ مثالًا واقعيًّا آخر يتعلق بالسِّباكة: عندما تسحب مقبض الدافق في المرحاض، يتحرَّر الماء من الخزَّان لينزل إلى الحوض، وهنا لدينا اقتران ثابت، لدينا تفسير لما يحدث: فعند النظر داخل الخزَّان تجد أنَّ سحب المقبض يحرِّر صمَّام الدَّافق ما يسمح للماء بالتدفُّق في الأنبوب إلى حوض المرحاض. ما حدث هنا اقتران ثابت، لكن وفقًا لهيوم -علمًا أنّه لم يكتب في الواقع عن دورات المياه - إنَّ ما وجدناه هو اقتران ثابت آخر بين فتح الصَّمَّام، وحركة الماء، وربما توجد تفسيرات أخرى لهذا الترابط المستمرِّ- من حيث الفراغ، والجاذبيَّة - لكن هذه التفسيرات لا تعدو عن أنها اقترانات ثابتة؛ أيّ تزامنًا متواصلًا ، إنَّها انتظام آخر؛ فالماء يملأ الفراغ، ويتدفَّق إلى الأسفل.

وبصرف النظر عن تفاصيل الحالة السَّببيَّة، أو تعقيدها، فهي مرتبطة دائمًا بالانتظام وفق ما يدَّعيه أتباع نظرية هيوم، ويبدو هذا صحيحًا بالنظر إلى قوانين الطبيعة الأساسيّة. ومن حيث المبدأ، لا يوجد تفسير أبعد من ذلك.

وإذا أخذنا قانون الجاذبيّة بالحُسبان -على فرض أنَّه قانون أساسيٌّ- باستطاعتنا القول: إنَّ أيَّ جسم يُطلق بالقرب من سطح الأرض يسقط باتجاهها. وعلى وجه العموم، فالأجسام تتحرك باتجاه بعضها بقوَّةٍ معينة ، وهذا وارد في

قانـون الجاذبيَّـة الذي ينصُّ علـى أنَّ هذه القوَّة تتعلق بكتلة الأجسـام، والمسـافة فيما بينها.

قد تكون الرياضيَّات خياليَّة، وصورًا ذهنيَّة ، لكن الفكرة الأساسيَّة أنَّ قوانين الطبيعة ليست سوى ملخَّصات، أو تنظيمات لما يحدث في هذا العالم بانتظام.

صُداع هيوم

ربما تبدو أفكار هيوم قادرة على تفسير اعتقاداتنا الحاليَّة بخصوص مُسبِّبات الأشياء؛ فقد لاحظنا حالاتٍ عدّة لأشخاص يعانون الصُّداع، ثم يشعرون بتحسُّن فـورًا بعـد تنـاول دواء الباراسـيتامول، وربمـا يقودنـا هـذا للاعتقـاد -وفقًا لهذا الانتظـام- بأنَّ هذا الدَّواء يعالج الصُّداع، لكن ما الذي سـيفعله أحد أتباع هيوم فيما لو عانى الصُّداع؟ هل سيتناول حبَّة من هذا الدواء؟ يعتقد هيوم أنَّ الانسان يفكـر بطريقة محـدَّدة؛ فعقولنا مسـؤولة عن نمطيَّتنا في التفكـير، ومن الطبيعيِّ أنْ نرى الآخرين -وأنفسـنا أيضًا- يشـعرون بتحسُّـن بعد تناول الدواء؛ لذا علينا القيـام بذلـك عندما نعاني الصُّداع في المرَّة القادمة. لكن ما من أساس منطقيٍّ لقرارنـا بتنـاول الدَّواء وفق فلسـفة هيـوم. من الطبيعـيِّ أنْ يُكوِّن البشـر توقُّعات معيَّنـة بشـأن المسـتقبل بنـاءً على أحـداث الماضي، لكـن لا يوجد لهذا الاسـتنتاج الطبيعيِّ أيُّ مبرِّر منطقيٍّ.

وفقًا لذلك، قد يعتقد أحد أتباع هيوم أنَّه من غير المنطقيِّ أنْ يتناول المُصاب بالصُّداع الدَّواء معتقدًا أنَّ صُداعه سيزول بعد ذلك؛ فاستنادًا إلى فلسفة هيوم لا يوجـد ارتبـاط حقيقـيٌّ بـين الـدَّواء، وزوال الألم. المشـكلة هنا أنَّنـا نعتمدُ على خبرتنا في الحالات المنتظمة التي خبرناها حتى الآن.

في الحالات التي ذكرناها، لاحظنا أنَّ الحدث (أ) يكون متبوعًا بالحدث (ب)، ولكن نظرًا لأنَّه لا يوجد شيء يشير إلى أنَّ الحدث (أ) يؤدِّي إلى حصول الحدث (ب) بعده، فلا يوجد أيُّ مبرِّر منطقيٍّ لنقول: إنَّ الأحداث من النوع (أ) ستعقبها أحداث من النوع (ب).

وإذا عبَّرنا عن ذلك بطريقة فلسفيَّة نقول: إنَّ وجهة نظر هيوم فيما يتعلق بالسَّببيَّة تستدعي مشكلة الشكِّ الاستقرائيِّ؛ فالاستقراء صورة من صور الاستدلال، ويمكن من خلال الأحداث الماضية المُلاحَظة أنْ نستدلَّ على الأحداث المستقبليَّة غير الظاهرة؛ فعلى سبيل المثال: إنَّ رؤية عود الثقاب يضيءُ عند احتكاكه بسطح ما، يجعلنا نفترض أنَّ أيَّ عود ثقاب يحتكُّ بسطح معيَّن في المستقبل سيضيءُ، ولا تقدِّم الرؤية الانتظاميَّة أيَّ تفسير يبيِّن سبب وجوب حدوث ذلك. وعليه، فإنَّ الاستدلال الاستقرائيَّ يبدو بلا أساس. لم يكن هيوم سعيدًا بهذا التَّضمين، لكنَّه اعتقد أنْ لا مفرَّ منه.

في أيِّ زمان، وفي أيِّ مكان

ينظر أنصار ديفيد هيوم في العصر الحديث -من أمثال ديفيد لويس- إلى فسيفساء هيوم بطريقة مختلفة بعض الشيء، فهم يركِّزون على البُعد الميتافيزيقيِّ للواقع بدلًا من مجرَّد نظرتنا الزمنيَّة المؤقتة إليه، وعندما يتحدَّث فلاسفة الميتافيزيقيَّة هؤلاء عن الانتظامات، فإنَّهم يفكرون في الانتظامات الموجودة في أحداث العالم كلِّها من البداية حتى النهاية بصورة مستمرَّة.

وإذا أخذنا بالحُسْبان فسيفساء هيوم مرَّة أُخرى، فسيدفعنا مؤيدو ديفيد لويس لأنْ نفكّر بها كما نفكر في فسيفساء تظهر فيها الأحداث جميعها التي تقع في أيِّ زمان ومكان. إنَّ الاقترانات الثابتة عبر التاريخ، منذ الانفجار العظيم وحتى الانكماش العظيم، تُعدُّ انتظامًا حقيقيًّا بوصف هذيْن الحدثيْن أوَّل أحداث

الكـون وآخرهـا، وقد لا يكون الوجود البشـريُّ محظوظًا إذا بدا شـيءٌ ما منتظمًا دون أنْ يكـون كذلـك في الواقـع؛ فقـد يكـون في تاريـخ العـالم حتـى هذا العـام أنَّ الحـدث (أ) كان متبوعًا بالحدث (ب)، وربما نفترض أنَّ الحدث (أ) سيتسـبَّب بحـدوث الحـدث (ب) مسـتقبلًا، ولكـن مـن المُحْتمـل أنَّ الحـدث (أ) لـن يكـون متبوعًا على الدَّوام بالحدث (ب) ابتداءً من العام المقبل.

لن يكون العالم رحيمًا بنا إذا ضلَّلنا بهذه الطريقة، ولكنَّ الأحداث المستقبليَّة -وفقًا للأسـباب الحقيقيَّة جميعها- سـتكون مثل الأحداث الماضية، وسـيكون لها اقتران ثابت حقيقيٌّ في كل مرَّة؛ ولهذا فإنَّ مشـكلة الاسـتقراء لا تتعلق بمعلوماتنا فقط، وإنّما بنظرتنا المحدودة إلى العالم أيضًا. إنَّها ليسـت مشـكلة السَّببيَّة بحدِّ ذاتها وفق النظرة الكليَّة لنظريَّة هيوم.

لكن ربما يوجِّه هذا الأنظار صوْبَ مشكلة أخرى تتعلق بنظريَّة الانتظام هذه، فسواء تسبَّب حدث ما بحدوث آخر، فالموضوع -وفقًا لوجهة النظرهذه- لا يتعلق فقـط بهذيْـن الحدثيْن، وطبيعة العلاقـة بينهما، فمبدأ أنْ يؤثِّـر الحدث الأوَّل في الثـاني يعتمـد على ما يحـدث في أماكن وأزمنـة أُخرى وفقًا لنظرة هيـوم الكليَّة، ويعتمد ذلك على كلِّ مثال مُشابه، وبذلك تصبح السَّببيَّة مسألة تقوم في أساسها على العلاقات بين الأشياء إلى حدٍّ كبير.

قـد نعتقـد أنَّه كلمـا اصطدمت كرة بلياردو بكرة أخرى، فـإنَّ هذا الاصطدام بالكرة البيضاء يجعل الكرة المُسْـتهدفة تتحرَّك، ولكن: ما علاقة هذا بما يحدث في لعبـة بليـاردو علـى طاولـة أُخـرى؟ كيف يمكـن أنْ يؤثِّـر ما يحدث علـى طاولة بليـاردو أخرى فيما يحدث على طاولتك؟ بعبارة أخرى، إذا كانت الكرة البيضاء قد جعلت كرة البلياردو الحمراء تتحرَّك، بحسب نظريَّة هيوم، فهذا يرتبط بكلِّ عمليَّـة اصطـدام أخـرى حدثت بـين الكرات على مـرِّ التاريخ، بمـا في ذلك بعض الاصطدامات التي ستحدث ضمن آلاف السِّنين اللاحقة، وبوجه عامٍّ فإنَّ حقيقة

قيـام الحـدث (أ) بالتسـبُّب بوقـوع الحـدث (ب) يرتبـط بالعديد مـن الأحداث الأخرى، فهل يمكن أنْ يكون الأمر حقًّا هكذا ؟

أحيانًـا يتـم تمييز هـذا النوع مـن التفسـيرات الأحاديَّة المرتبطـة بالعلاقات الخاصّة بالسَّـببيَّة، فأتباع التفسـير الفـرديِّ، أوالإفرادي يبحثـون عن ارتباطات سـببيَّة بـين الأحداث الفرديَّة مُحـدَّدة التوقيت كأنْ يصفِّق سُـلطان بيديْه في يوم الخميـس مُحدِثًا صوتًا مميَّزًا، ويعتقد أصحـاب الاتجاه الإفرادي، أو الفرديِّ أنَّه بإمكاننا تجاهل كلِّ شيء آخر ما عدا هذيْن الحدثيْن إذا أردنا أنْ نعرف فيما إذا كان أحدهما يتسبَّب بحدوث الآخر.

وفي المقابل، يؤكِّد أتباع هيوم -بوصفه جزءًا جوهريًّا من نظريَّتهم- أنَّ حدثًا مـا يمكن أنْ يتسـبَّب بحـدوث آخر إذا كان هذا التسلسـل حالةً مـن حالاتِ قانون تفسـيريٍّ عامٍّ، وهذا يعني أنَّه يتعيَّن وجود قوانين سـببيَّة. ومثال ذلك، أنَّ الطعام يُغـذّي الجسـم، أو بالأحـرى تناول الطعام يرتبـط دائمًا بالتغذيـة الجيِّدة، وهذا يقودنـا إلى اسـتنتاج مفاده أنَّ تناول (فرح) لرغيـف الخبز يمكِّنها من الحصول على تغذية جيِّدة.

الأمر هنا لا يتعلق فيما إذا كان شـيء ما يمكن أنْ يتسـبَّب بحدوث آخر، فإذا لم يوجـد نمـوذجٌ مُنتظـم لحدث يتبع حدثًا آخـر، فهذا يعني أنَّنـا لا نملكُ بالفعل سببًا وجيهًا للاعتقاد بالعلاقة السَّببيَّة.

المُصادفات ستحدثُ

مـع ذلك، يرى معارضو نظرية الاقتران الثابـت أنَّ هذه النظريَّة تُعاني نقطة ضعف أُخرى؛ فالنظريَّة غير قادرة على التمييز بين الأسباب والمصادفات، وهذا

ما جعلهم يطرحون السؤال الآتي: ألا يمكن أنْ يُوجَد فرق محتمل بين الانتظامات السَّببيَّة الحقيقيَّة والمصادفات المحضة؟

نحن نميل عادةإلى التمييز بين المصادفات، والحالات السَّببيَّة؛ مثلًا: إنَّ الفوز بتذكرة في سباق للخيول وأنت ترتدي ربطة العنق التي تتفاءل بها قد يكون محض صُدفة، ومن المؤكَّد أنَّ ربطة العنق لا يمكن أنْ تؤثر في نتيجة السِّباق، لكن ماذا لو تكرَّر الأمر مرَّة ثانية، ففزتَ وأنت ترتدي ربطة العنق نفسها، ثم تكرَّر الأمرُ أيضًا مرَّة أُخرى؟

ماذا يمكن لأحد أتباع نظريَّة هيوم أنْ يقول عن الفرق بين الأسباب والمصادفات؟ ما عليهم أنْ يفعلوه هو التفكير في النمط الأوسع للأحداث؛ بمعنى هل تقترن أحداث النوع الأوَّل دائمًا بأحداث النَّوع الثاني؟ هنا، لا يُسْمَح لنا بطرح أيِّ افتراضات عن ماهيَّة المُصادفة؛ فوفقًا لمدرسة هيوم، إنَّ أيَّ نوعيْن من الأحداث يمكن أنْ يكونا مقترنيْن باستمرار، والعكس صحيح. وبمعنًى آخر، إنَّ السَّببيَّة - وفق هذه النظرة - هي علاقة تماسٍّ بصورة كلِّيَّة، فلا يوجد أيُّ تناقض بين أيِّ نوعيْن مميَّزين من الأحداث، سواء مرتبطيْن سببيًّا كانا، أم لم يكونا كذلك.

هنا تكمن المشكلة؛ فعندما يفوز شخص ما في السِّباق وهو يرتدي ربطة العنق المفضَّلة تلك، فإنَّنا نفكِّر تلقائيًّا في الأمر على أنه مجرَّد صدفة، لكن إذا افترضنا أنَّ هذا الشخص فاز كل مرَّة وهو يرتدي ربطة العنق تلك، فكيف سيُفسَّر الأمر في هذا المقام؟ سيقول أتباع نظرية هيوم: بما أنَّ السَّببيَّة تعمل بانتظام، فإنَّ ربطة العنق تسبَّبت في كل مرَّة بالفوز في السِّباق.

إذا كان الأمر مجرَّد صدفة محضة، فقد يكون من المُستبعَد أنْ يرتبط حدث ما بحدثٍ آخر مرَّات عديدة، لكنَّ أتباع هيوم لا يمكنهم في الواقع تأكيد ذلك؛

فقد ضيَّق هيوم الخناق على نفسه عندما قال في نظريَّته: إذا كان الحدث (أ) يرتبط بالحدث (ب) دائمًا، فإنَّ الأوَّل يتسبَّب بحدوث الثاني.

من جهة أُخرى، يمكن لمعارضي هيوم أنْ يجعلوا المسألة تحتملُ نهاياتٍ عديدةً، وفي الحالات جميعها، عندما يكون الحدث (أ) متبوعًا بالحدث (ب) بصورة مُنْتظمة، فإنَّ بعض الحالات، أو معظمها سيكون سببيًّا حقيقيًّا، ولكن يمكن أنْ يكون بعضها عرضيًّا.

هنا يمتلك معارضو نظريَّة هيوم المقدرة على التمييز بين الأحداث السَّببيَّة، والمصادفات، ويبدو أنَّ مؤيِّدي نظريَّة هيوم لا يستطيعون إدراك هذا التمييز بسهولة؛ لأنَّ الأمر يتطلب صيغة أكثر تطوُّرًا لنظريَّة هيوم، ليصبح من الممكن تمييز الأحداث السَّببيَّة من المُصادفات.

إلى أيِّ درجة يكون الانتظامُ انتظامًا؟

إذا فكَّر أحدنا في مسألة الأسباب والمصادفات، ستتكشَّف له نتيجة متناقضة فيما يخصُّ نظريَّة هيوم عن الانتظام، وسيكون من السَّهل حدوث الاقتران الثابت كلما كانت الحالات أقل، فإذا حصل الحدث (أ) خمْس مرَّات فقط على مرِّ التاريخ، وكان متبوعًا بالحدث (ب) في كلِّ مناسبة، فإنَّ هذا يُعدُّ انتظامًا استثنائيًّا. لكن من المُحتمل جدًّا، في ضوء الحالات القليلة، أنْ يكون هذا مجرَّد صُدفة، يفهمها أتباع نظريَّة هيوم على نحو غير صحيح بأنَّها سبب.

وعلى أتباع نظريَّة هيوم الاعتراف بأنَّ حدوثَ كلٍّ من الانتظام والسَّببيَّة مرتبط باحتمالات عديدة إذا كانت الحالات السَّببيَّة في حدِّها الأدنى.

تبـدو هـذه مفارقة؛ لأنَّنا قد نفكر عادةً بأنَّه مـن المرجَّح أنْ يكون الحدث (أ) سـببًا في حـدوث (ب) كلمـا زادت الحـالات التي يكـون فيها الحـدث (أ) متبوعًا بالحدث (ب).

لكـن مـاذا لو وجـدت حالة واحـدة من الحـالات المرتبطة بالحـدث(أ)، على فرض وجود كونٍ يحتوي على حدثيْن فقط: انفجار، ومن ثمَّ وميض؟

والسُّؤال المطروح الآن: هل تسبَّب الانفجار بحدوث الوميض؟ إذا ما اعتمدنا تفسـير الاقتران الثابت، فمن المنطقيِّ أنْ نقـول: نعم؛ فالانفجار كان على الدَّوام متبوعًا بالوميض، ولكن ما زال بإمكاننا الاعتقاد بأنَّها صدفة محضة.

علينـا أنْ نكـون مُنْصفـين مع هيـوم؛ لأنَّـه كان يملك جوابًـا لفرضيَّة الحدث الواحد؛ فعندما طرح قضيّة إنْ كان الله قد تسـبَّب بوجود الكون من خلال عمليَّة الخلق، فهو يرى أنَّه لا يمكننا تصنيف هذه العمليَّة في إطار السَّببيَّة؛ لأنّها عمليَّة فريـدة بالمطلـق؛ أيْ إنَّها تحدث مرَّة واحدة فقـط، ويُصِرُّ على أنَّ تكرار الأحداث يدفـع أفكارنـا إلى أنْ تنحو باتجاه السَّـببيَّة، وهذا بالنّسـبة إليـه أمر صعب؛ لأنَّنا لا نسـتطيع رؤيـة عمليَّـة خلق الكون تتكرَّر مـرّات عديدة، لكن الفكـرة العامَّة هي قناعتنـا بـأنَّ السَّـببيَّة فيهـا تفسـير لمعظم الحـالات، وسـتزداد بزيـادة الأحداث المترابطـة، بينمـا تتلاشـى هذه القناعـة كلما قلَّتْ هـذه الأحداث لتبـدو مراجعة الموضوع متوائِمة مع الحسِّ السَّليم.

لدينـا الآن أساسـيَّات الانتظـام وفق نظريَّة هيـوم، وسـنضيف إليها تفاصيل أخـرى، فالانتظام ليـس تامًّا لكي نجزم بأنَّ حدثًا واحدًا يتسـبَّب بحدوث الآخر، ولكن الانتظام هو الجزء الأساسيُّ في مفهوم السَّببيَّة، ويجب أنْ نبحث عن علاقة الارتباط في العديد من العلوم بصورة رئيسة، فإذا وجدنا في نتيجة أحد البحوث

أنَّ معدَّل الشفاء من مرضٍ ما يتحسَّن عند تناول جرعة معينة من الدواء، ألا يكفي ذلك لأنْ نعتقد بوجود حالة سببيَّة تقف وراء الأمر؟

لا يتحمَّس العاملون في مجال العلوم لفكرة وجود سببيَّة حقيقيَّة تكمن وراء علاقة الارتباط، وربما يكون الأمر أكثر من مجرد الاشتباه بوجود تأثير ميتافيزيقيٍّ وراء ذلك، توجد وجهة نظر تقول: إنَّ علاقة الارتباط هي كلُّ ما لدينا، وعلينا ألا نتوقع وجود شيء ما وراء هذه العلاقة يؤدِّي إلى الانتظام، ومع ذلك سنرى أنَّه يمكننا معالجة عددٍ من القضايا، إضافة إلى وجود نظريَّات أُخرى للسَّببيَّة قد تثبت بأنَّها جديرة بالاهتمام.

obeikandl.com